تحليل الخطاب بين نحو النص والنحو المعرفي

د. حاتم محمد محمد مصطفى
قسم النحو والصرف والعروض
كلية دار العلوم، جامعة المنيا
hatimmustafa2@gmail.com

المستخلص

بعد أن شاع في الدراسات اللغوية الحديثة اهتمام الباحثين بنحو النص وتحليل الخطاب، بدأت الأنظار تتوجه تلقاء النحو المعرفي؛ ترى فيه نهجًا جديدًا ومدخلًا مختلفًا يجمع بين الاستعمال اللغوي والنشاط الذهني، لكن أحدًا لم يستشرف العلاقة بين النحوَين المعرفي والنصي في مجال أضحى عاملًا مشتركًا بينهما، ألا وهو تحليل الخطاب. لذلك هدف البحث إلى ملاحظة ما بين نحو النص والنحو المعرفي من أوجه تشابه واختلاف وتنوُّع في تحليل الخطاب، وذلك عبر موازنة كيفيّة، بالاستناد إلى استقراء بعض الأعمال الأصلية لأعلام النظريتين، ومقاربة شذرات كاشفات من نصوصها المنهجية وأقوالها المرجعية، وقد أظهرت نتائج البحث وجود بعض الصلات بين النحوَين، وإن تجاهل المعرفيون النصيين في أعمالهم، كما أظهرت بعض نقاط الاختلاف.

الكلمات المفتاحية: نحو النص، النحو المعرفي، تحليل الخطاب، السياق.

المقدمة:

يعد النحو بمفهومه الواسع ضابطًا للمنتَج اللغوي، موظَّفًا فيه، ثم محلِّلًا له، كاشفًا عن سمت أصحابه ومقاصدهم واتساع تصرفاتهم في المباني والمعاني، وعلى جانب آخر لا يمكن إغفال أن هذا العلم مستمد من استعمال اللغة أصلًا، ومن ثم تتجلى علاقة ثنائية الاتجاه تأثيرًا وتأثُّرًا بين النحو والاستعمال، ومع تعدد الأنماط الناتجة عن استعمال اللغة، وتجدد مناهج التحليل، يُنشَد للنحو آفاق جديدة، تتلاقي فيها المسارات، وتتكامل فيها العلوم؛ لخدمة اللغة والكشف عن أسرارها.

وبعد أن شاع في الدراسات اللغوية الحديثة اهتمام الباحثين بنحو النص وتحليل الخطاب، بدأت الأنظار تتوجه تلقاء النحو المعرفي؛ ترى فيه نهجًا جديدًا ومدخلًا مختلفًا يجمع بين الاستعمال اللغوي والنشاط الذهني. لكن أحدًا لم يستشرف العلاقة بين النحوَين المعرفي والنصي في مجال أضحى عاملًا مشتركًا بينهما، ألا وهو تحليل الخطاب، حيث اهتم به النحو المعرفي مؤخرًا، وارتبط به نحو النص من قبل.

لذا هدف البحث إلى ملاحظة ما بين النحوَين من أوجه تشابه واختلاف وتنوُّع في تحليل الخطاب، وذلك عبر موازنة موضوعية كيفية على وفق المنهج المقارن. وقد انتهى العمل إلى مبحثين: كان الأول للإطار النظري، فحدَّد مصطلحات البحث تعريفًا وترجمةً، وبيَّن الخلفية النظرية للنحو المعرفي؛ إذ إنه – مع حداثته - ينبي على مفاهيم ذهنية قد تبدو غريبة على الدرس اللغوي، ثم كان المبحث الثاني للعرض

والمناقشة، فانطلق من استقراء بعض الأعمال الأصلية لأعلام نحو النص والنحو المعرفي إلى مقاربة وصفية تحليلية لشذرات كاشفات من نصوصها المنهجية وأقوالها المرجعية، دون الفصل بينها؛ لما ظهر في أثنائها من تداخل، وكان السبيل إلى التخفيف من وطأة هذا التداخل مع تنوع أدوات التحليل أنِ اجتهد البحث في طلب حسن التخلص، حتى إذا جاءت الخاتمة تجلت فيها النتائج موجزة مائزة بين نقاط التشابه والاختلاف.

المبحث الأول: الإطار النظري

أولًا- مصطلحات البحث:

(١) نحو النص: Text Grammar

ظهر تحت هذا الاسم في أولى مراحله، "وامتد ذلك من منتصف الستينيّات إلى منتصف السبعينيّات تقريبًا، غير أن الاتجاه السائد في أوربا آنذاك كان يجعل مفهوم النحو شكليًّا إلى حد كبير، ويقترب بشدة من التركيب Syntax ...، ومن ثم كان من المتوقع أن يبرِّر مصطلح لسانيات النص Text Linguistics نفسه بسعة تبعده عن ضيق مفهوم النحو المتبادر إلى الذهن نتيجة ما بينه وبين التركيب من إسقاطات في ثقافة ذلك الوقت" (Beaugrande, 1997: 60). ثم "تطور مفهوم النحو في الأعمال المتقدمة من هذا العلم، واختلف عما كان عليه في بدايته، إذ اتسع فتضمن قضايا دلالية وتداولية، مما أدى إلى تجنب كثير من الأمور الشكلية النظرية المجرَّدة" (Beaugrande, 2011: 290)، ومن ثم استفاد من علوم شتى بتوظيف أفكارها في تحليل النص أو الخطاب على أن أيًّا منهما وحدة لغوية في موقف تواصلي معين أو استعمال واقعي.

(٢) تحليل الخطاب: Discourse Analysis

جاء - على الأقل في البحث الإنجليزي - من خارج اللسانيات، وبخاصة من دراسات علم الإنسان الوصفي، المعروف بالمجال الإثنوجرافي Ethnography للثقافات واللغات غير الموصوفة من قبل، ومن ثم كان أكثر تقاربًا مع الوظيفية (Beaugrande, 2004: 119). وفيه نظريات متعددة: منها ما يركز على بنية النص ولغته، ومنها ما يركز على سياقه الموقفي والاجتماعي، ومنها ما يجمع بين الجانبين، ومنها ما يضم إليهما الجانب المعرفي ...، لذا تعددت فيه العلوم المستفاد منها، وتم تصنيفه على أنه متداخل التخصصات، وتعددت جهات النظر إليه، فهو يُعنى بالتحليل النصي السياقي، أو بدراسة اللغة في استعمال واقعي تواصلي، أو بالممارسة الاجتماعية بشقيها اللغوي والمعرفي.

(٣) النحو المعرفي: Cognitive Grammar

جاء من رحم العلوم المعرفية الحديثة عامة وعلم النفس المعرفي خاصة، وينتمي إلى الحركة الواسعة المعروفة باسم اللسانيات المعرفية، التي تعد جزءًا من النهج الوظيفي. بدأ ظهوره الحقيقي في أوائل سبعينيّات القرن الماضي، وانتشر بشكل متزايد في مطلع التسعينيّات. يرى أن النحو ليس جزءًا لا يتجزأ من المعرفة فحسب، بل هو مفتاح فهمها أيضًا، ومن أهم مبادئه أن النحو ذو طبيعة معنوية، وليس نظامًا شكليًّا مستقلًّا عن غيره من مستويات اللغة. ومصطلح النحو هنا يُستخدم بمفهوم واسع؛ إذ يشير إلى نظام اللغة ككل، ويتضمن الصوت والصرف والتركيب والمعنى في تمثيل واحد (Evans & Green, 2006: 3, 114) (Langacker, 2008: 3-7)، ويستفيد كذلك من علوم شتى متداخلة التخصصات.

وقد تُرجم مصطلحه (Cognitive Grammar) إلى: النحو المعرفي، والنحو الإدراكي، والنحو العِرفاني، والنحو العَرفني. وقد اختار البحث الترجمة الأولى؛ لجمعها بين الأصالة والشيوع والشمول. وتفصيل ذلك على النحو الآتي:

١- مرّ آنفًا أن هذه النظرية جاءت أصولها من علم النفس المعرفي، وهذا العلم شاع بترجمته المذكورة المختارة.
٢- مصطلح (العَرفنة) مشتق من جذر لا وجود له في لغتنا العربية.
٣- مصطلح (العِرفان) ذو صبغة دينية صوفية.
٤- مصطلح (الإدراك) يقابل (Perception)، وهو جزء من كل؛ إذ يعد عملية من العمليات المعرفية الكثيرة، وواحدًا من موضوعات عديدة يُعنى بدراستها علم النفس المعرفي. ومثل الإدراك في ذلك: الإحساس، والانتباه، والتحليل، والترميز، والتخزين، والتذكّر، والتمثيل، والتصوُّر، والتنّبؤ، والتخطيط، والاستنتاج، والتقييم، والتفكير، وحل المشكلات، والتعلّم ...، فالنظام المعرفي واسع، يجمع كل ما سبق، ويصعب أن نضيق نطاقه بحصره في الإدراك. وإذا كان الإدراك عملية نشطة غير سلبية تنطوي على بعض العمليات المعرفية كالإحساس والانتباه وغيرهما، فإنه يبقى جزءًا من النظام المعرفي، يؤثر فيه، ويتأثر بعملياته الأخرى. ولقد صرّح لانجاكر بالتمييز بين العمليات الإدراكية (perceptual) والمعرفية (cognitive) في قوله: "إن العارف بلغة ما متقن لمجموعة من المهارات لعدد هائل من العمليات الإدراكية والحركية والمعرفية التي يمكن توظيفها وتنفيذها تفاعلًا مع الآخرين في التحدّث والفهم (Langacker, 2007: 424).
٥- لا يضير مصطلح (المعرفي) اشتراكه اللفظي مع (المعرفة) المقابلة لكلمة (knowledge)؛ لأن هذه الكلمة تفيد الإلمام بمجموعة من المعلومات والحقائق، لهذا فضَّل البحث ترجمتها بصيغة الجمع (معارف)، التي تناسب المقصود من معناها، وتفض الاشتراك اللفظي العربي.

ثانيًا- الخلفية النظرية للنحو المعرفي:

يعد التعبير عن الفكر وظيفة من الوظائف المهمة للغة، حيث تحوّل اللغة أفكارنا إلى رموز، وتضفي عليها طابعًا خارجيًّا. هذه الرموز قد تكون حروفًا أو مقاطع صوتية أو كلمات أو سلاسل من الكلمات، يمكن التحدث بها أو كتابتها في شكل تجمعات رمزية فيها مزاوجة بين المبنى والمعنى. وفي يومياتنا تتجاوز اللغة هذه الوظيفة إلى وظيفة تفاعلية من أجل التعبير والتواصل، وهذا يقتضي أن تكون مزاوجات المبنى والمعنى معروفة مشتركة بين المتحدث والمستمع أو الكاتب والقارئ؛ لنقل أفكارنا ومشاعرنا، بل إنها قد تؤدي إلى تغيير في واقعنا أو في المجتمع؛ فبها ينعقد زواج أو يُنجز عمل، وبها ينفذ أمر أو نهي، فتصبح اللغة فعلًا كلاميًّا (Evans & Green, 2006: 6-11). وفي ثنايا كل ذلك يستدعي استعمال اللغة مجموعة غنية من المعارف والخبرات تصوُّرًا وتوقُّعًا واستنتاجًا وتحليلًا.

هنا يتجلى سبب اهتمام اللسانيين المعرفيين بدراسة اللغة؛ إذ "ينبع من افتراض أنها تعكس أنماط التفكير. ومن ثم فدراسة اللغة من هذا المنظور دراسة لأنماط التصوُّر، حيث تقدم اللغة نافذة على الوظيفة المعرفية، وتوفر نظرة ثاقبة على طبيعة الأفكار وبنيتها وتنظيمها. وهكذا تمتاز اللسانيات المعرفية عن غيرها من المناهج بافتراض أن اللغة تعكس ملامح الذهن البشري وسماته الأساسية" (Evans & Green, 2006: 5).

وإذا كان اللسانيون المعرفيون قد أجمعوا على علاقة اللغة بالفكر، فقد اتفقوا كذلك على أن تلك العلاقة تتسم بالتفاعل المتبادل، بدلًا من تغليب أحد طرفيها على الآخر؛ فالمتحدثون يتأثرون بأنماط لغتهم، وأنماط اللغة تُكتسب وتتطور بناءً على تصوُّرات المتحدثين بها واستعمالهم لها في الأنشطة اليومية المجسدة. ومن ثم يُنظر الآن بشكل متزايد إلى هذين الجانبين للعلاقة بين اللغة والفكر على أنهما مكملان لبعضهما البعض، ولا تناقض بينهما. هذه العلاقة المزدوجة تعبِّر عن صلة اللغة بالعلوم المعرفية، وهي نقطة انطلاق التحليل المعرفي للخطاب، حيث تنعكس على الاستعمال اللغوي (Tenbrink, 2015: 102-103).

ومن النماذج اللغوية القائمة على الاستعمال يأتي النحو المعرفي في محاولة لفهم اللغة على أنها نتيجة للآليات والعمليات المعرفية العامة، وليست نتيجة لوحدة لغوية متخصصة؛ لأن اللغة من منظوره تتبع المبادئ العامة نفسها التي تتبعها الجوانب الأخرى للنظام المعرفي البشري (Evans & Green, 2006: 484). إنه يعكس خبراتنا الأساسية في التحرك والإدراك والتأثير في العالم؛ وفي صميم المعاني النحوية هناك عمليات ذهنية كامنة في معيشتنا لحظة بلحظة، وعند تحليلها بشكل صحيح نجد النحو لديه الكثير مما يخبرنا به عن المعنى والمعرفة، مع التأكيد على أن المعنى يُعرف بأنه التصوُّر المرتبط بالتعبيرات اللغوية (Langacker, 2008: 3-7).

ومصطلح التصوُّر (Conceptualization) "يتم تفسيره على نطاق واسع، فهو يشمل التصوُّرات الجديدة غير المألوفة، إلى جانب التصوُّرات الراسخة، كالخبرات الحسية والحركية والانفعالية، مع تحديد السياق المباشر (الاجتماعي والمادي واللغوي). ونظرًا لأن التصوُّر يكمن في المعالجة المعرفية فقد وجب أن تكون غايتنا القصوى تمييز أنواع الأحداث المعرفية التي يشكِّل وقوعها خبرة ذهنية معينة. وبُعد هذا الهدف ليس حجة لإنكار الأساس التصوُّري للمعنى" (Langacker, 2006: 30).

هذه النظرة للنحو قد تُرى صعبة غامضة، بل قد تُزدرَى؛ لأنها تتعارض مع الموروث الشكلي أو الثوابت المعيارية. لكن أحد أهم أعلام النحو المعرفي (لانجاكر) يصرح بأن تلك الاعتراضات لا أساس لها؛ "فالتصوُّر - على الرغم من أنه ظاهرة ذهنية - يرتكز على واقع مادي، حيث يتشكَّل من نشاط الدماغ، الذي يعمل جزءًا لا يتجزأ من الجسم، الذي يعمل جزءًا لا يتجزأ من العالم. وترتكز المعاني اللغوية كذلك على التفاعل الاجتماعي، حيث يتم التوافق من قبل المحاورين بناءً على التقييم المتبادل لمعارفهم وأفكارهم ومقاصدهم" (Langacker, 2008: 4).

يرى لانجاكر أن النحو المعرفي نظرية نحوية أولًا وقبل كل شيء، لذلك يبدي دهشة من العبارات التي تنتقده بأنه "لا يعتد بالنحو، وكل شيء عنده دلالات". ويرد بأن نظريته لا تهدد النحو ولا تنكر وجوده؛ فالنحو موجود، لكن القضية تتعلق بطبيعته. إنه ذو طبيعة رمزية، فيها مزاوجة بين البنية الدلالية والبنية الصوتية، بحيث تكون إحداهما قادرة على إثارة الأخرى. والنحو بالطبع معنيّ بكيفية دمج هاتين البنيتين لتشكيل تعبيرات مركَّبة، ومن ثم يشكِّل النحو والمعجم تسلسلًا يتألف في مجموعات من البنى الرمزية لا غير، وتصبح كل التصنيفات المطروحة للوصف النحوي - كالاسم أو الفاعل أو الماضي على سبيل المثال - ذات معنى بطريقة ما (Langacker, 2008: 5).

المبحث الثاني: العرض والمناقشة

ارتبط تحليل الخطاب بنحو النص مبكرًا، حيث تقاربت اهتماماتهما والتقيا منذ بدأت اللسانيات النصية، التي أقرَّت أن النص وحدة وظيفية في المقام الأول، ووحدة شكلية في المقام الثاني (Beaugrande, 2004: 119). فكان هذا الارتباط دافعًا لاستعمال المصطلحين بمفهوم واحد على الترادف عند بعض الباحثين، كما كان دافعًا لعلاقة جدلية متداخلة بين النص والخطاب على مستوى المفهوم أيضًا.

أما النحو المعرفي فقد صب اهتمامه بالتطبيق على مستوى الجملة، ولم يحظ مستوى الخطاب باهتمام مماثل، إلى أن أخذت اللسانيات المعرفية مؤخرًا تتلاقى مع تحليل الخطاب، وأصبحت مدخلًا من مداخله، في منعطف اجتماعي أو نقدي للحقل الأول (المعرفي)، ومنعطف معرفي للحقل الثاني (الخطابي)، فأضحت المنفعة تبادلية بين الحقلين في تآزر ثري مفيد أثمر عن علاقة ثلاثية بين اللغة والذهن والمجتمع. "فمن ناحية تقدم اللسانيات المعرفية لتحليل الخطاب – وبخاصة النقدي - الحلقة المفقودة التي يحتاجها لتوضيح العلاقة بين الممارسات الخطابية والممارسات الاجتماعية. ومن ناحية أخرى يقدم تحليل الخطاب للسانيات المعرفية فرصة لتوسيع تحليلاتها إلى ما وراء البنية اللغوية والتصوُّرية؛ لتشمل القيود الموضوعة على البنية الاجتماعية" (Hart, 2015: 323).

ومع التقدير والاحترام لهذا التوجه المتطور لا يمكن إغفال ملاحظة مهمة تثير الدهشة ولا تخفى على المهتمين بالدراسات النصية والمعرفية. لقد "اختار العديد من المعرفيين تجاهل البحث السابق الوفير في النص والخطاب، وقدموا الكثير من المفاهيم والأساليب على أنها جديدة، في حين أنها كانت معروفة منذ أكثر من عقدين" (Szwedek, 2003: 81).

خلال هذين العقدين كان تركيز البحث اللساني المعرفي منصبًّا على النحو والدلالة على مستوى الجملة، وحينما اتجهت أنظار أصحابه مؤخرًا صوب التداولية والخطاب اعترف لانجاكر بأنه ليس لديه خبرة حقيقية فيما يتعلق بالخطاب، ولا يملك معرفة واسعة بأدبيات هذا المجال، لكنه استهدف توضيح العلاقة بين تعبيرات الخطاب من ناحية، ومبانيها كما هي في النحو المعرفي من ناحية أخرى، في محاولة منه للربط بين النحو المعرفي والخطاب من حيث المبدأ، ودعا العلماء ذوي الخبرة المناسبة للتحقق من علاقتهما بشكل أكثر منهجية، مشيرًا إلى أن صلة النحو المعرفي بالخطاب تتجلى في رؤيته الأساسية بأن جميع الوحدات اللغوية مستمدة من أحداث الاستعمال، فهي أمثلة فعلية لاستعمال اللغة (Langacker, 2001: 144).

ثم صرح بعد ذلك بأن "النحو المعرفي لم يُستمد من أي نظرية أخرى، ولا هو قريب بشكل خاص من أي نظرية، في حين أنه يحمل بعض أوجه التشابه مع عدد من الأطر، بيد أنها محدودة النطاق، ولا تظهر إلا عند ذكرها بعبارات عامة"، وحدد قصده هنا بالدلالة التوليدية والنحو البنائي (Langacker, 2007: 421). ثم أشار في عمل آخر إلى المناهج الشكلية والوظيفية بشكل عام.

فقال: "ليس الأمر مجرد إعلان أن النحو معرفي، وأن البحث اللغوي يسهم في فهم الذهن البشري، فهذا أمر يشترك فيه العديد من المناهج الشكلية والوظيفية. وإذا كانت اللسانيات المعرفية تتفق مع الوظيفية

في التأكيد على الوظيفة العلاماتية للغة، وأنها تعترف تمامًا بأن اللغة أساس التفاعل الاجتماعي، فإنها تمتاز بالإصرار على أن الوظيفة التفاعلية للغة تعتمد بشكل حاسم على التصوُّر. وبالمقارنة مع المناهج الشكلية فإن اللسانيات المعرفية تمتاز برفض فرض الحدود بين اللغة والظواهر النفسية الأخرى؛ لأنها ترى أن التركيب اللغوي يعتمد على أنظمة وقدرات أخرى أساسية كالإدراك والذاكرة والتصنيف، ولا يمكن فصله عنها، فاللغة جزء لا يتجزأ من المعرفة، وليست ملكة ذهنية مستقلة أو وحدة منفصلة" (Langacker, 2008: 7-8).

لكن إنعام النظر في بعض ما جاء عن تحليل الخطاب عند لانجاكر أو عند غيره من اللسانيين المعرفيين يكشف عن تشابه كبير مع بعض ما جاء عند سابقيهم من لسانيي النص والخطاب، ورغم ذلك غابت أسماء السابقين ودراساتهم عن أعمال اللاحقين (المعرفيين)، الذين يصرون على الاختلاف والتفرد، وإن كان حقهم في الاختلاف ثابتًا محفوظًا؛ إذ "يظل النحو المعرفي فريدًا – وإن بدا سيئًا في بعض العيون - بحكم بعض ادعاءاته القوية والمثيرة للجدل، لا سيّما التوصيف التصوُّريّ للمفاهيم النحوية الأساسية (كالاسم والفعل والفاعل والمفعول على سبيل المثال)، والاختزال الكامل للمعجم والنحو في مجموعات من البنى أو التراكيب الرمزية" (Langacker, 2007: 423).

يبدأ الاختلاف والتشابه في آن واحد من طبيعة النحو نفسه وعلاقته بالدلالة والتداولية بين النصيين والمعرفيين، أما عن نحو النص فقد "تطور مفهوم النحو في الأعمال المتقدمة من هذا العلم، واختلف عما كان عليه في بدايته، إذ اتسع فتضمن قضايا دلالية وتداولية، مما أدى إلى تجنب كثير من الأمور الشكلية النظرية المجرَّدة" (Beaugrande, 2011: 290). "فالنحو بمفهومه الواسع - الذي يتجاوز المفهوم التقليدي المألوف - يضم ثلاثة مكونات، تتشابك وتتكامل فيما بينها: المكون الأول خاص بالشكل Form أو المبنى، وهو عبارة عن البنيات الصوتية والصرفية والتركيبية للملفوظات. والمكون الثاني خاص بالمعنى Meaning والعلاقات الدلالية القائمة بين جمل الخطاب وقضاياه. والمكون الثالث خاص بالتداولية Pragmatics أو أفعال الكلام وأحداثه" (van Dijk, 1981: 9).

وأما النحو المعرفي فقد قدَّم نفسه على أنه عكس المناهج اللغوية الشكلية التي غالبًا ما ترسخ دور النحو، في حين أنه يرسخ دور المعنى. "فالنحو المعرفي يفترض دلالة معرفية ويعتمد عليها، إذ يُنظر إليه في الإطار المعرفي على أنه نظام معنوي في حد ذاته، ومن ثم يتقاسم خصائص مهمة مع نظام المعنى اللغوي ولا يمكن فصله عنه ...، وهكذا يكون المائز بين مقاربة النحو المعرفي ومقاربة الدلالة المعرفية غير محدد بشكل واضح؛ حيث يُنظر إلى المعنى والنحو على أنهما وجهان لعملة واحدة: فالمقاربة المعرفية للنحو دراسة لوحدات اللغة ومن ثم نظام اللغة نفسه. أما المقاربة المعرفية للدلالة فهي محاولة لفهم كيفية ارتباط هذا النظام اللغوي بالنظام التصوُّريّ، الذي بدوره يرتبط بالخبرة المكتسبة. ولذلك فإن اهتمامات الدلالة المعرفية والنحو المعرفي تكاملية...، وما تقسيم اللسانيات المعرفية إلى هذين المجالين إلا لأغراض التدريس والتعلم" (Evans & Green, 2006: 48-49).

بعد هذا الربط بين النحو والدلالة عبر المعنى التصوُّريّ، أصبح "من الخطأ افتراض أن مساواة المعنى بالتصوُّر تعني ضمنيًّا عدم وجود أي تمييز بين الدلالة والتداولية، أو تعني أن التصوُّرات التي يُعتمد عليها لأغراض لغوية لا تتأثر خلال توظيفها، ومن ثم تعادل تمامًا المفاهيم غير اللغوية. بل على العكس من ذلك يُنظر إلى البنى الدلالية تحديدًا على أنها تمثل تكييف التصوُّرات لأغراض تعبيرية، ومن ثم تتوافق مع كل من قيود العرف اللغوي ومقتضيات وظيفة اللغة. إن ادعاء النحو المعرفي بأن التمييز

الدلالي التداولي تقسيم زائف مصطنع إلى حد كبير لَيعود إلى تعسُّف الخط الحدودي الفاصل، ولا ينكر وجود التداولية أو إمكانية تمييزها عن الدلالة" (Langacker, 2007: 431-432).

هكذا انتقل النحو بأضلاعه الثلاثة من الحقل النصي إلى الحقل المعرفي، لكن الأخير يفضل دمج ثلاثة الأضلاع في ضلع واحد هو المعنى أو الدلالة؛ لأنه لا يعتد بالشكلية، فيختزل المبنى ويتصوَّره معنى، كما أنه لا يعتد بالفصل المتعسف بين الدلالة والتداولية. ولذلك نجد المبدأ الأساسي فيه أن اللغة هي كل ما يتعلق بالمعنى؛ إذ إنها شيء دلاليّ في المقام الأول. هذا ما جاء في افتتاحية العدد الأول من مجلة اللسانيات المعرفية، الذي نُشر عام ١٩٩٠م.

وإذا كان النحو المعرفي يجعل اللغة رمزية، ويراها جزءًا لا يتجزأ من المعرفة، ويشير إلى الاستعمال اللغوي أساسًا للتواصل والخطاب، وأننا نستند فيه إلى كل ما لدينا من المعارف والقدرات الذهنية والمهارات الشخصية، ومن ثم يسهم بحثه في فهم الذهن البشري (Langacker, 2008: 7-11, 457-459, 466) (Evans & Green, 2006: 5-8)، فإن بوجراند ودريسلر صرَّحا في اللسانيات النصية أن "التواصل النصي مجال مهم لبناء نظريات المعرفة بشكل عام؛ لأن النصوص أساس رصد الأحداث الذهنية بقدر وصولها إلى الوعي الشعوري، فالتواصل النصي هو النظام الأكثر تفصيلًا والأدق تمييزًا للسلوك الرمزي البشري ...، ومن المحتمل أن يستلزم الاتصال النصي جميع المهارات الرئيسية للسلوك الذهني البشري بشكل عام" (Beaugrande & Dressler, 1981: 210).

وفي النحو المعرفي يمثل الخطاب استعمال اللغة؛ إذ يتألف من سلسلة من أحداث الاستعمال، وهي حالات استعمال اللغة بكل تركيباتها وخصائصها، حيث يتم ربطها لتشكيل إنتاج لغوي متماسك، سواء أكان من كلمات أم جمل، وسواء أكان حوارًا منطوقًا أم نصًّا مكتوبًا، فليس له حجم معين (Langacker, 2008: 457, 465).

وهذا ما سبق التعبير عنه في نحو النص، فالخطاب عند فان دايك ملفوظ من اللغة الطبيعية منطوقًا أو مكتوبًا، تكمن فيه بنية نصية، ويحقق متوالية من الجمل المترابطة، تفي بعدد من الخصائص (van Dijk, 1980: 50, 1972: 1). وعند بوجراند ودريسلر يمثل الخطاب ممارسة اللغة أو استعمالها عبر تخطيط تفاعلي، فهو تتابع موقف أو حدث يعرض فيه مشاركون متنوعون النصوص كأفعال خطاب. ومن ثم يعد النص حدثًا اتصاليًّا يحقق سبعة معايير للنصية، هي: الترابط، والتماسك، والقصدية، والقبولية، والإعلامية، والموقفية، والتناصية (Beaugrande & Dressler, 1981: 3, 125). وقد صرَّح بوجراند بأنه لا يُدْرَك أي من هذه المعايير السبعة دون مراعاة أربعة عوامل، هي: اللغة، والذهن، والمجتمع، والمعالجة أو الإجراء (Beaugrande, 1980: 21). والفصل الثالث (conceptual connectivity) من هذا الكتاب إشاراته المعرفية هائلة.

كذلك نجد النص قطعة متماسكة من الخطاب عند هاليدي ورقية حسن، ويعد حدثًا تفاعليًّا ووحدة من اللغة في الاستعمال، منطوقة أو مكتوبة، وبأي حجم؛ لأنه وحدة دلالية، ليس من حيث الشكل أو المبنى، ولكن من حيث المعنى، فهو لا يتكون من جمل، وإنما يُدرَك من خلال الجمل، أو يُعَبَّر عنه رمزيًّا في جمل (Halliday & Hasan, 1976: 1-2).

وقد أوجز براون ويول بتعبير جامع عام يقول: إن الخطاب هو "اللغة في الاستعمال" (Brown & Yule, 1983: 1, 6, 190). وظهر هذا التعبير في التعريف الشائع الرحب للتداولية بأنها "دراسة اللغة

في الاستعمال"، ولا غرو فهي تُعنى بتحليل الخطاب في إطار يجمع بين قصد المخاطِب، وتلقي المخاطَب، وسياق الخطاب، ومدى العلاقة بين طرفيه. والسياق هنا ينطوي على ثلاثة مفاهيم تتعلق به، هي: السياق اللغوي Co-Text ويختص بالبناء الداخلي للنص. والسياق غير اللغوي Context ويختص بالبيئة الواسعة المحيطة بالنص التي تتضمن موقفًا تتفاعل فيه كوكبة من المعارف والتوقعات والاستراتيجيات. أما المفهوم الثالث فهو الموقف Situation الذي يُعد أحد مكونات سابقه (Beaugrande, 1980: 12-13).

وإذا عدنا إلى النحو المعرفي نجد التعبير ذاته حاضرًا، سواء بأن "اللسانيات المعرفية هي دراسة اللغة في الاستعمال" (Sanders & Spooren, 2007: 932)، أو بأن "التحليل المعرفي للخطاب دراسة للغة في الاستعمال (لغة طبيعية غير مصطنعة)" (Tenbrink, 2015: 100)، أو بأن الخطاب نفسه "هو استعمال اللغة" (Langacker, 2008: 457).

ثم تتحدد توجهات التحليل المعرفي للخطاب أثناء دراسة اللغة في الاستعمال بدراسة طرق انتقال المتحدثين بمرونة بين المجالات المفاهيمية عبر التمثيل الذهني (كتصوُّر المشاهد المركَّبة، وإدراك الحدث، وما شابه ذلك)، وما يتخلل ذلك من عمليات معرفية مركَّبة (كاتخاذ القرارات، وحل المشكلات)، وتأثير الموقف وسياق الخطاب في التمثيل اللغوي (Tenbrink, 2015: 101). فدراسة الخطاب تزودنا برؤى مهمة عن العلاقة بين اللغة من جهة، والتمثيل المعرفي الذي يمتلكه مستعملو اللغة أو مقدمو الخطاب من جهة أخرى، حيث تقدم التعبيرات اللغوية إرشادات لبناء مثل هذا التمثيل المعرفي (Sanders & Spooren, 2007: 931).

من ذلك – على سبيل المثال – الوقوف أمام مشهد واحد تقدم له الجملتان الآتيتان إشارات مختلفة اختلافًا جوهريًّا.

(١) السيارة الزرقاء متوقفة أمام شجرة.

(٢) أرأيت كيف أوشك هذا الأحمق أن يصطدم بالشجرة؟

فعلى عكس الجملة الأول تُبرز الثانية ما في ذهن المتكلم من تقييمات مؤثّرة، تتجلّى في تعبيره بلفظٍ كالأحمق ويصطدم، مدعومة بدعوة لتبادل تصوُّره عبر سؤال "أرأيت؟"، وتبقى السيارة مضمَّنة في هذا الكلام، يمكن الاستدلال عليها من الموقف الحركي الذي أثاره الاصطدام بالشجرة، أما لونها فلا يظهر في الوصف، بما يعني أنه لا يهم المتكلم في هذه اللحظة. ثم إن اللافت للنظر في الجملة الثانية أنها تعكس تصوُّرًا لمشهد حيوي (ديناميكي) عبر صيغة الفعل الدالة على حدث سابق للعرض الحالي للمشهد، في حين أن الأولى تصف العرض الحالي على أنه مشهد ساكن جامد. وعلى رغم أن الجملتين تشيران إلى مشهد بصري واحد فإن الاختيارات اللغوية للمتكلمين تنقل تصوُّراتهم الجوهرية وإدراكاتهم المختلفة بطرق عديدة (Tenbrink, 2015: 100).

ولمّا كان الخطاب قائمًا على أحداث الاستعمال، فقد حدد النحو المعرفي حدث الاستعمال على أنه "يشمل الفهم السياقي الكامل للتعبير، بدءًا من معناه اللغوي، وصولًا إلى تفاعل المتحدث والمستمع حينما يشارك كل منهما في تقييم ما يعرفه الآخر، وتحديد ما يقصده ويهتم به آنذاك، ومن ثم يصل المحاورون إلى تصوُّرات متماثلة تقريبًا للمحتوى المطلوب، ويوجِّهون انتباههم إلى التعبير نفسه. المهم في هذا الصدد أن يوفر السياق العام خلفية معرفية مشتركة، هذا الأساس المشترك للتفسير يطلق عليه حيّز الخطاب

الجاري، ويشمل كل شيء يُفترض أن يتم مشاركته من قبل المتحدث والمستمع أساسًا للتواصل في لحظة معينة، بما في ذلك الخطاب الجاري نفسه، وما يتضمنه من أحداث الاستعمال السابقة، وأي أحداث قد تكون متوقعة" (Langacker, 2008: 465-466).

هكذا يكون "حدث الاستعمال ثنائيّ التكوين؛ إذ يتألف من التصوُّر ووسائل التعبير كليهما. فعلى الجانب التعبيريّ يتضمن الحدث التفاصيل الصوتية الكاملة لكلام ما، وكذلك أي أنواع أخرى من الإشارات، كالإيماءات ولغة الجسد (حتى الروائح المحتملة). وعلى الجانب التصوُّريّ يتضمن حدث الاستعمال فهمًا كاملًا لسياق التعبير، ليس فقط لما يُقال بوضوح، بل لما يتم استنتاجه كذلك، بالإضافة إلى كل ما يُستدعى أساسًا للفهم. ومن ثم فإن حدث الاستعمال عندما يُدرس بتفاصيل واسعة ودقيقة لا يتطابق تمامًا بالنسبة للمتكلم والمخاطب، وعادة ما تكون مساحة التلاقي الجوهري كافية للتواصل الناجح" (Langacker, 2008: 457-458).

وهنا يظهر اهتمام الدلالة المعرفية بفكرة القصد، حيث تُعنى بكيفية استخدام المحاورين للمعارف المشتركة بينهم لتحديد المقصود مما يُقال، وبخاصة عندما يكون ما يُقال بحاجة إلى بعض الجهود التفسيرية التكميلية. كان ذلك بتفعيل اللسانيات النفسية لخدمة التواصل بين الأشخاص، إذ يؤدي مفهوم المعارف المتبادلة أو الخلفية المعرفية المشتركة دورًا مركزيًا في نجاح عملية التواصل، سواء من ناحية حسن الصياغة أو من ناحية صحة الفهم ومنع اللبس (Hirsch, 1997: 61).

ومن قبل كان القصد أداة مهمة من أدوت تحليل الخطاب، كما كان من أهم عناصر الاستعمال اللغوي في النظرية التداولية، ونال حظًّا وفيرًا من العناية في اللسانيات النصية، وعلم الاجتماع، وعلم النفس، والفلسفة ...، ومن المدخل الأخير (الفلسفي) كان معظم ما تأثرت به دراسات اللغة بعمق، حيث يكون الشغل الشاغل حول كيفية تعالق المقاصد في الواقع مع مبنى الملفوظات ومعناها. فلا يمكن تفسير النص على أنه تنظيم من الصيغ أو الجمل فحسب، إن الصيغ والجمل تعمل كوحدات وأنماط إشارية للمعاني والأغراض أثناء التواصل (Beaugrande & Dressler, 1981: 33, 116).

ولا يخفى أن بوجراند ودريسلر قد جعلا القصدية معيارًا من معايير النصية يختص باتجاه منتج النص نحو تقديم نص مترابط ومتماسك تتحقق من خلاله أهدافه وخططه (Beaugrande & Dressler, 1981: 7, 113)، مع مراعاة وجود قدر متفاوت من المرونة في هذا المعيار؛ إذ يبقى القصد قائمًا حتى عندما لا يتم الوفاء بكل عناصر معيارَي الترابط والتماسك في النص، وحتى إذا لم يتحقق الهدف المنشود من الخطة في الواقع، فهذه المرونة عامل نظامي يتوسط بين استراتيجيات اللغة عمومًا ومقتضيات السياقات والمواقف الجارية (Beaugrande, 1980: 20).

كذلك كان التماسك عند بوجراند ودريسلر معيارًا نصيًّا يقوم على مجموعة من العلاقات الدلالية المنطقية والمعرفية: كالسببية، والغائية، والتسلسل الزمني للأحداث، والاستدلال، والإحالة، والتخصيص بعد تعميم، والتفصيل بعد إجمال. فالتماسك ليس مظهرًا للنصوص فحسب، بقدر ما هو نتاج للعمليات المعرفية عند مستعملي النص؛ إذ إن تجاورًا بسيطًا للأحداث والمواقف في النص سيعمل على تفعيل العمليات المعرفية التي تستدعي علاقات التماسك النصي أو تقيمها. لذا أشارا إلى أن معنى النص يتحدد من خلال تفاعل المعارف المقدمة فيه مع المعارف المخزنة والمتوقعة لدى مستعمليه. ومن ثم ظهرت لديهما دعوة مبكرة لتعاون لسانيي النص مع علماء النفس المعرفيين لاستكشاف معنى النص (Beaugrande & Dressler, 1981: 4-6).

حقًّا راح النحو المعرفي ينشد هذا الهدف في آفاق الخطاب، ولكن يبدو أن أصحابه لبّوا نداء الدعوة السابقة دون سماعها متجاهلين جهود النصيين. لقد عدَّت إحدى الدراسات علاقات التماسك جوانب معرفية تؤدي دورًا محوريًا في كل من إنتاج الخطاب وفهمه، حيث افترضت أن القُرّاء والمستمعين يستخدمون علمهم ببعض المفاهيم المعرفية الأساسية لاستنتاج علاقات التماسك. وانعكس ذلك على رؤيتها للخطاب على أنه أكثر من مجرد مجموعة من الجمل العشوائية؛ لأنه متماسك، أو بالأحرى لأن الناس يقدمون له تمثيلًا متماسكًا. ومن ثم فإن علاقات التماسك علاقات تصوُّرية تصل بين أجزاء الخطاب (Sanders et. All, 1993: 93-94).

"إنّ عدّ التماسك ظاهرة ذهنية يعني أنه ليس خاصية متأصلة في النص قيد البحث، وإنما ينشئ مستعملو اللغة التماسك من خلال ربط وحدات المعلومات المختلفة في النص ببعضها" (Sanders & Spooren, 2007: 919). هكذا يمثل النهج اللغوي المعرفي تطورًا حديثًا في تحليل الخطاب، حيث ينظر صراحة للعلاقة بين البنى اللغوية في النصوص والبنى التصوُّرية في أذهان المشاركين في الخطاب، ومن ثم يعالج مشكلة التكافؤ المعرفي، ويهتم بتوظيف الاستعارات في تنويع الخيارات اللغوية وتفعيل الخبرات السابقة. إنه يحول تركيز الانتباه من بنية النص إلى الخطاب؛ نتيجة لعنايته بالأبعاد المعرفية التي ينطوي عليها إنتاج المعنى وتفسيره (Hart, 2014: 11, 108).

نعم، هناك إجماع على أن ما يجعل مجموعة من الملفوظات خطابًا حقيقيًّا هو معناها في المقام الأول لا شكلها. ولكن في الوقت نفسه هناك اتفاق على أن الخطاب يعتمد على ربط أجزائه لتكوين رسالة متماسكة. فبينما يقدم مستعملو اللغة تمثيلًا متماسكًا للخطاب في أذهانهم، نجد الخطاب ذاته يحتوي على إشارات لغوية صريحة - قد تكثر وقد تقل - توجه تلك العملية التفسيرية. هكذا تظهر وجهة نظر لتحليل الخطاب تجمع بين الجانبين: التمثيل الذهني، والإشارات اللغوية الصريحة أو الظاهرة، فتحافظ بذلك على أن التماسك ظاهرة معرفية، ولا تغفل عن التفاصيل اللغوية الكاشفة عن ترابط الخطاب (Sanders & Spooren, 2007: 916, 919).

حتى مفهوم الترابط الذي سبق أن أشار إليه هاليداي ورقية حسن "جزء من نظام اللغة ...، وليس علاقة شكلية خالصة، دون أن تتضمن المعنى؛ لأن الترابط علاقة دلالية، بيد أنه ككل مكونات النظام الدلالي يُدرَك من خلال النظام النحوي المعجمي" (Halliday & Hasan, 1976: 5-6). لكنهما يخالفان النهج المعرفي من خلال نظام ترميزي متعدد تقسم فيه اللغة إلى ثلاثة مستويات: المستوى الدلالي (المعاني)، والمستوى النحوي المعجمي (الصيغ / الأشكال)، والمستوى الصوتي والكتابي (التعبيرات).

وتُعَدُّ الإحالة إحدى الوسائل المهمة لترابط النص وتماسكه، "يكمن الترابط بالإحالة في استمراريتها؛ إذ يُعاد إدخال الشيء نفسه في الخطاب للمرة الثانية ...، مع ما تتميز به من طبيعة محددة للمعلومات التي نشير إليها لاسترجاعها" (Halliday & Hasan, 1976: 31). وقد "ذهب العديد من اللسانيين الوظيفيين والمعرفيين إلى أن قواعد التماسك الإحالي تسهم بدور حاسم في العمليات الذهنية لربط المعلومات الواردة بالتمثيلات الذهنية الموجودة (Sanders & Spooren, 2007: 921).

إننا نجد في الإحالة تطابقًا بين المحيل ومرجعه، واستغناءً عن إعادة ذكر المرجع مرة أخرى، واستبدالًا له ببنى مختلفة تتيح استمرارية المعنى، واختزالًا وتكثيفًا لقطاع طويل من النص يمتد تركيبيًّا ودلاليًّا، ثم يتنوع تفسيرها وتحديدها بين معلومات مستمدة من النص نفسه أو السياق اللغوي، ومعلومات مستمدة من الموقف أو السياق غير اللغوي، ومعلومات مستمدة من الخلفية المعرفية لدى المخاطب أو

المتلقي، إذن هناك استرجاع لمعلومات، واستدلال على أخرى؛ لتحديد المرجعية بشكل صحيح، وصولًا إلى ما يريده المتكلم أو الكاتب، ومن ثم تقع ظواهر الإحالة بين عمليتي الإنتاج والتلقي، لغويًّا ومعرفيًّا، ومن منظور معايير النصية فإنها تتداخل بين علاقات الترابط والتماسك.

وإذا كان الاهتمام بالإحالة فيما مضى يغلب عليه البحث الوصفي على امتداد النص والخطاب داخليًّا وخارجيًّا، فإن الدراسة الآن تميل إلى البحث التجريبي لاستكشاف معالجة القُرّاء للإحالة من جهة الانتباه، والتنبؤ، والاستدلال، والاستمرارية ...، مع تحديد مدى تباطؤ القراءة وتسارعها بشكل آلي يصل بالأمر إلى حد النمذجة المتكررة مع كل خطاب؛ "لإظهار الواقع النفسي للمؤشرات اللغوية للتماسك الإحالي. فعلى سبيل المثال يسهل تفسير الضمير بالمرجع الواضح أكثر من المرجع المبهم الملبس، ويسهل تفسير الضمير بالمرجع القريب أكثر من المرجع البعيد. وبالنسبة للمدة الزمنية فقد أظهرت الدراسات العينية مرارًا وتكرارًا أن تعبيرات الإحالة على سابق يتم تفسيرها بشكل أسرع ...، وكذا أظهرت نتائج الدراسات حساسية القراء تجاه نوع الإحالة على لاحق" (Sanders & Spooren, 2007: 921, 923).

هذه النقطة تنقلنا إلى أهم عناصر الاستعمال اللغوي، وأهم أدوات تحليل الخطاب، إنه السياق؛ ففي نظر النحو المعرفي – الذي يركز على الفهم السياقي الكامل - "تعد الوحدات اللغوية التقليدية مجرد مصدر واحد مستثمَر في أحداث الاستعمال؛ إذ إننا في التحدث والتفاهم نستند إلى كل ما لدينا من المعارف والقدرات الذهنية والمهارات الشخصية. ومن الجوهري أيضًا إدراكنا للسياق الذي يتمثل أحد جوانبه في الخطاب الجاري ذاته. ومن ثم ينبغي ألا تعد العوامل المتنوعة التي تسهم في أحداث الاستعمال منفصلة ومعزولة" (Langacker, 2008: 458).

"يعد السياق الذي يقع فيه حدث الاستعمال أو الكلام أمرًا محوريًا في التفسير المعرفي، وبخاصة إذا كانت الكلمة لها أكثر من معنى بطبيعتها؛ فهذا يعني أن معناها قابل للتغير إلى حد ما، ورغم أن الكلمات تحمل معناها التقليدي المألوف، فإن السياق الذي تُستعمل فيه الكلمة له تأثيرات مهمة على معناها"، وفي مثل هذه الحالة يوصف المعنى التقليدي المألوف بأنه "معنى ترميزي"، ويوصف المعنى الناجم عن السياق بأنه "معنى تداولي"، وبينما يكون المعنى الترميزي تجريديًّا، فإن المعنى التداولي حقيقي (Evans & Green, 2006: 112, 113). والسياق هنا لا يختلف كثيرًا عن المطروح في نحو النص، المذكور في موضعه من البحث، غير أنه نوعان: "سياق الملفوظ أو السياق الحسي sentential or utterance context"، و"سياق الاستعمال the context of use".

أما الأول فيتعلق بالعناصر الأخرى في المحيط التركيبي للفظ. ومثال ذلك تأثُّر معنى حرف الجر (في) بالعناصر المحيطة به في التركيب، نحو قولنا:

(أ) القطة في الصندوق.

(ب) الزَّهرة في الزَّهرية.

(ج) في الزَّهرية صدع.

هذه الأمثلة تتضمن مشاهد مكانية متنوعة قليلًا، إذ تعكس (في) العلاقة المكانية بين الشيء وموضعه. ففي المثال (أ) القطة محاطة بالصندوق، بحيث تكون العلاقة المكانية علاقة احتواء. أما

المثالان الآخران فلا ينطبق عليهما المعنى نفسه؛ ففي (ب) الزَّهرة غير محاطة بالزَّهرية؛ لأنها بارزة منها جزئيًّا. وبالمثل في (ج) ليست العلاقة علاقة احتواء؛ لأن الصدع موجود على الجزء الخارجي من الزَّهرية. هكذا توضح الأمثلة الثلاثة، أن معنى (في) ليس ثابتًا، وإنما يُستمد جزئيًّا من العناصر المحيطة به.

وأما النوع الثاني من السياق فلا يتعلق بعناصر الكلام نفسه، بل يتعلق بالخلفية المعرفية التي على أساسها يتم إنتاج الكلام، ولذلك سُمي سياق الاستعمال، ومثاله جملة:

(إنه مظلم هنا).

إذا قالها أحد لآخر في كهف سيكون هذا بيانًا واقعيًّا بغياب الضوء في الكهف، وقد يحمل تعبيرًا عن الخوف أو طلبًا لشعلة فحسب. أما إذا نطق بها أستاذ لطالب يجلس بجوار مفتاح الإضاءة في قاعة ضعيفة الإضاءة، فقد يكون هذا طلبًا لتشغيل الضوء. وإذا نطق بها شخص ما لصديقه عند دخوله إلى غرفة مضاءة ببراعة، فقد تكون عبارة ساخرة يتم نطقها بغرض التسلية. هكذا يتضح من المعاني المحتملة أن سياق الاستعمال يتفاعل مع نوايا المتكلم، وأنه يؤدي دورًا مهمًّا في كيفية تفسير الكلام من قِبل المستمع (Evans & Green, 2006: 113).

ولقد ربط فان دايك من قبل بين نحو النص وعلم النفس المعرفي في محاولة لاستكشاف الوظائف المعرفية التي قد تكون مضمَّنة في الخطاب، فقدَّم إطارًا تحليليًّا على أساس سياقي معرفي أطلق عليه "التحليل الوظيفي للخطاب" "functional context Discourse Analysis"، وفي وصفه لهذا الإطار أشار إلى أنه مكون من شقين: شق لغوي، يهتم بالعلاقات النحوية والوظيفية للأبنية النصية أو استراتيجياتها، وشق أوسع متعدد التخصصات، يحلل العلاقات الوظيفية بين تلك الأبنية النصية وسياقاتها المتنوعة المعرفية والتفاعلية، وصولًا إلى المستوى الكلي المجتمعي أو الثقافي. وقد وصف الشق الأول بأنه "تحليل وظيفي للنص"، والثاني "تحليل السياق الوظيفي للنص"، ثم جمع بينهما مصرحًا بتكاملهما تحت عنوان "التحليل الوظيفي للخطاب" (van Dijk, 1990: 27).

إذ يرى أن تحليل سياق النص للعلاقات الوظيفية يسمح بتقديم تفسيرات للبنى النصية بتفصيل معالجتها المعرفية أو وظيفيتها الاجتماعية؛ لأن لها أساسًا معرفيًّا، كاستحضار المعارف القديمة والجديدة، والافتراض المسبق، والتضمين، وتمثيلات الذاكرة. فبالنظر إلى الطرق التي يتم بها تمثيل الأفعال أو الأحداث أو الوقائع من قِبل مستعملي اللغة، نجد أن الكلمات والجمل والخطابات كلها لا تفسَّر نسبةً للعالَم، ولكن نسبةً للطريقة التي نعرفه بها أو نراه عليها من منظورنا (van Dijk, 1990: 28-29, 36-37).

ثم اتسع فكره فوجد أن علم النفس المعرفي للخطاب حتى اليوم ليس لديه نظرية صريحة عن كيفية تأثير البيئات الاجتماعية والتواصلية على النص والحديث. فحاول رسم المبادئ الرئيسية لمثل هذه النظرية بالكشف عن جوهر الواجهة المعرفية للعلاقات بين الخطاب والمجتمع. وركز على دور الجانب المعرفي الشخصي والاجتماعي في تفسير الخصائص الأساسية لإنتاج الخطاب وفهمه، مع ملاحظة أن هذه العلاقات المعرفية المزدوجة (الشخصية والاجتماعية) متشابكة في معالجة الخطاب، ولا تنفصل عن بعضها. فعلى ضوء الجانب الاجتماعي تؤثر التمثيلات الذهنية في العمليات المعرفية التي ينطوي عليها إنتاج الخطاب وتفسيره، وينطبق المبدأ نفسه على العلاقة العكسية؛ إذ يؤثر الخطاب في البنية الاجتماعية

من خلال التمثيلات الذهنية لمستعملي اللغة بِعدِّهم أطرافًا فاعلين اجتماعيًّا (van Dijk, 2014: 122-123). وهكذا نجد أن مستعملي اللغة يفكرون ما بين عمليات معرفية وتفاعل اجتماعي.

من هنا تنبَّه فان دايك إلى أن تحليل الخطاب - وبخاصة النقدي - لا يزال يفتقد بعدًا حاسمًا، وهو البعد المعرفي الاجتماعي، وتطلَّع إلى آفاق نهج ثري في هذا المجال أطلق عليه "الدراسات المعرفية الاجتماعية للخطاب" "Sociocognitive Discourse Studies"، مشيرًا إلى أن هذه الواجهة المعرفية الاجتماعية معقدة على غرار اللسانيات المعرفية، لكنها على نطاق أوسع، فإلى جانب التمثيلات الذهنية لمستعملي اللغة، تتعامل مع الخلفية التواصلية المشتركة بينهم، وكذلك المعارف الاجتماعية العامة، بالإضافة إلى المواقف والأفكار والاتجاهات الوجدانية لديهم؛ فهم مشاركون في الوضع التواصلي من ناحية، وأعضاء في المجموعات الاجتماعية والمجتمعات من ناحية أخرى (van Dijk, 2018: 27-28).

الخاتمة:

رام البحث فيما مضى المشاركة في تحديث ذاكرة الدراسات اللغوية بالكشف عن الآثار النصية في النحو المعرفي، وما بين النظريتين من اختلاف وتنوُّع، وبخاصة على مستوى تحليل الخطاب. وفيما يلي يمكن إيجاز النتائج والملاحظات.

١- بعض ما جاء عن تحليل الخطاب عند لانجاكر أو عند غيره من اللسانيين المعرفيين يكشف عن تشابه كبير مع بعض ما جاء عند سابقيهم من لسانيي النص والخطاب، ورغم ذلك غابت أسماء السابقين ودراساتهم عن أعمال اللاحقين (المعرفيين)، سواء أكان ذلك عن تجاهل أم عدم انتباه.

٢- من نقاط التشابه التي ظهرت للبحث بين نحو النص والنحو المعرفي:

١/٢- اعتماد الطبيعة الرمزية الاجتماعية للغة، وأنها تعكس أنماط التفكير.

٢/٢- التعامل مع الخطاب على أنه غير محدد بحجم معين، وقد يكون منطوقًا أو مكتوبًا.

٣/٢- سمة التداخل العلمي وتعدد التخصصات التي تقتضي خلفيات متنوعة: لغوية ونفسية واجتماعية عند تحليل الخطاب.

٤/٢- التركيز على قيمة الاستعمال اللغوي الواقعي، ومعطيات التواصل الحقيقي المتعلقة بالمخاطِب والمخاطَب والخطاب والسياق، مع الاهتمام ببعض مفاهيم الإنتاج وأدوات الفهم والتحليل، كالقصد، والتوقع، والعرف، والتكرارية، وعلاقات التماسك، والخلفية المشتركة.

٥/٢- كثرة المفاهيم والمصطلحات المعرفية، كالتمثيل الذهني، والمنظور، والتصوُّرات، والتخطيط، والتخزين، والتصنيف، والاستدعاء، والتوقع، والاستدلال، والإدراك الحسي، والحيّز، والأنماط، والخبرة، والنمذجة، والذاكرة، واكتساب المعارف.

٣- من نقاط الاختلاف التي ظهرت للبحث بين نحو النص والنحو المعرفي:

١/٣- وحدة التحليل في النحو المعرفي منذ بدايته كانت الجملة. أما نحو النص فقد نشأ متخطيًا حدود الجملة، ورفض أن تكون أساس التحليل، ومن ثم فقد كان الأسبق إلى تحليل الخطاب.

٢/٣- اختلف النحو المعرفي بإرجاع كل ما يتعلق باللغة إلى التصوُّر، وبالغ في التفاصيل والمخططات المعرفية لدرجة معقدة ومرهقة.

٣/٣- نحو النص يميل إلى المنهج الوصفي، والنحو المعرفي يميل إلى المنهج التجريبي.

٤- اتجه تحليل الخطاب مؤخرًا نحو آفاق أوسع بإضافة البعد الاجتماعي إلى البعد المعرفي، ويبدو أن الساعين إلى هذا قادمون من اللسانيات النصية والاجتماعية أو متأثرون بهما.

٥- عارض النحو المعرفي أفكار تشومسكي بالإصرار على أن اللغة جزء لا يتجزأ من نظامنا المعرفي، فهي عند أصحابه نتيجة للعمليات المعرفية العامة، وليست ملكة مستقلة، وما يحدث في استعمال اللغة من عمليات لا يختلف عن كل جوانب النظام المعرفي لدى البشر، كالإدراك الحسي والاستدعاء والتصنيف والنشاط الحركي وغير ذلك.

٦- إذا كان النحو المعرفي يعيب على المناهج الشكلية إسرافها في الرؤية التركيبية بطغيان المبنى على المعنى، فإن البحث يراه غير بعيد عن المأخذ نفسه من ناحية عكسية؛ إذ أسرف في رؤيته المعنوية بطغيان المعنى على المبنى. وهنا يتجلى تميز نحو النص بالموازنة بين الجانبين دون طغيان أحدهما على الآخر، بل إنه يقوم على مثلث أضلاعه الثلاثة متكاملة متجانسة، هي: التركيب والدلالة والتداولية. وقد ظهر في ثنايا البحث أن هذه الأضلاع مختزلة غير متوازنة في النحو المعرفي.

٧- بناءً على هذه الملاحظة كان من المنطقي في تحليل الخطاب عند النحوَين ألا يردد الأخير (النحو المعرفي) في أعماله سوى مصطلح "الخطاب"، فلا نرى ذكرًا لكلمة "النص"؛ نتيجة لكون المعنى شغله الشاغل، فاتجهت نظرته إلى الخارج، خارج البنية، إن جاز التعبير. في حين أن سابقه (نحو النص) يردد في أعماله المصطلحين "النص" و"الخطاب" معًا؛ نتيجة لموازنته بين المبنى والمعنى وسياقهما، فجمعت نظرته للبنية بين الداخل والخارج.

المراجع:

- Beaugrande Robert de (1980): Text, discourse, and process “Toward a multidisciplinary science of texts”. Ablex publishing corporation: Norwood, New Jersey.
- Beaugrande, Robert de (1997): New foundations for a science of text and discourse "Cognition, communication, and the freedom of access to knowledge and society". Ablex publishing corporation: Norwood, New Jersey.
- Beaugrande, Robert de (2004): A new introduction to the study of the text and discourse. Published on the Internet, http://www.beaugrande.com.
- Beaugrande, Robert de (2011): Text linguistics. In: Zienkowski, Jan et. all (Eds.), Discursive pragmatics, 8 (Handbook of pragmatics highlights), John Benjamins publishing: Amsterdam & Philadelphia.
- Beaugrande, Robert de & Dressler, Wolfgang (1981): Introduction to text linguistics. Longman: London & New York.
- Brown, Gillian & Yule, George (1983): Discourse analysis. Cambridge university press: Cambridge.
- Evans, Vyvyan & Green, Melanie (2006): Cognitive linguistics an introduction. Edinburgh university press: Edinburgh.
- Halliday, Michael & Hasan, Ruqaiya (1976): Cohesion in English. Longman: London.
- Hart, Christopher (2014) :Discourse, grammar and ideology “Functional and cognitive perspectives”. Bloomsbury academic: London & New York.
- Hart, Christopher (2015): Discourse. In: Dabrowska, Ewa & Divjak, Dagmar: Handbook of cognitive linguistics. 39 (Handbooks of linguistics and communication science), Mouton de Gruyter: Berlin.
- Hirsch, Richard (1997): Semantic content and depth of intention “A study in cognitive semantics”. In: Liebert, Wolf-Andreas et. all (Eds.): Discourse and perspective in cognitive linguistics. John Benjamins publishing: Amsterdam & Philadelphia.
- Langacker, Ronald (2001): Discourse in cognitive grammar. Cognitive Linguistics 12(2), 143-188.
- Langacker, Ronald (2006): Cognitive grammar “Introduction to concept, image, and symbol”. In: Geeraerts, Dirk: Cognitive linguistics “Basic readings”, 34 (Cognitive linguistics research), Mouton de Gruyter: Berlin.

- Langacker, Ronald (2007): Cognitive grammar. In: Geeraerts, Dirk & Cuyckens, Hubert (Eds.): The Oxford handbook of cognitive linguistics. Oxford university press: New York.
- Langacker, Ronald (2008): Cognitive grammar "A basic introduction". Oxford university press: New York.
- Sanders, Ted et. all (1993): Coherence relations in a cognitive theory of discourse representation. Cognitive Linguistics 4(2), 93-134.
- Sanders, Ted & Spooren, Wilbert (2007): Discourse and text structure. In: Geeraerts, Dirk & Cuyckens, Hubert (Eds.): The Oxford handbook of cognitive linguistics. Oxford university press: New York.
- Szwedek, Aleksander (2003): Text linguistics versus cognitive linguistics. Research in Language, vol. 1, 81-94.
- Tenbrink, Thora (2015): Cognitive discourse analysis "Accessing cognitive representations and processes through language data". Language and Cognition, 7(1), 98-137.
- van Dijk, Teun (1972): Some aspects of text grammars "A study in theoretical linguistics and poetics". Mouton publishers: the Hague.
- van Dijk, Teun (1980): The semantics and pragmatics of functional coherence in discourse. In: Ferrara, A. (Ed.): Speech act theory "Ten years later". Special issue of versus, Milano, 26/27.
- van Dijk, Teun (1981): Studies in the pragmatics of discourse. 101 (Janua Linguarum. Series Maior), Mouton publishers: the Hague.
- van Dijk, Teun (1990): Issues in functional discourse analysis. In: Pinkster, Harm & Genee, Inge (Eds.): Unity in diversity "Papers presented to Simon C. Dik on his 50th birthday", Foris publications: Dordrecht.
- van Dijk, Teun (2018): Sociocognitive discourse studies. In: Richardson, John & Flowerdew, John (Eds.): The Routledge handbook of critical discourse studies. Routledge: London.

Discourse Analysis between Text Grammar and Cognitive Grammar

Hatim Muhammad Muhammad Mustafa
Dept. of Grammar, Morphology and Prosody
Faculty of Dâr El'Uloom, Minia University

Abstract:
This research aimed to observe the similarities, differences and diversity in discourse analysis between text grammar and cognitive grammar, which through a qualitative compare, based on some of the original works of the two theories. The results of the research showed a relationship between both grammars, with some differences, but this has been ignored by many cognitive linguists.

Key Words: text grammar, cognitive grammar, discourse analysis, context.